واحد . ويرتكبوا ذلك في الكلام كلّـِه حتى يزعموا أنّـَا إِذا قلنا في قوله تعالى : ( ولكُم في القِصاص حياةٌ ) : أَنّـَ المعنى فيها أنه لما كان الإِنسانُ إِذا همّـَ بقتلِ آخرَ لشيءٍ غاظه منه فذكرَ أنه إِن قَتَـله قُتِل ارتدعَ صار المهمومُ بقتلِه كأنه قد استفادَ حياةً فيما يستقبلِ بالقصاص . كما قد أدّـَينا المعنى في تفسيرنا هذا على صورتِه التي هو عليها في الآية حتى لا نعرفَ فضلاً . وحتى يكونَ حالُ الآيةِ والتفسيرِ حالَ اللفظتين إِحداهما غريبةٌ والأخرى مشهورة فتفسّـَرُ الغريبةُ بالمشهورةِ مثلَ أن تقول مثلاً في الشّـَرجب إِنه - الطويل - وفي القِطّ إِنه الكتابُ وفي الدّـُسُر إِنه المساميرُ . ومَنْ صار الأمرُ به إِلى هذا كان الكلام معه محالاً .

واعلمْ أنه ليس عجيبٌ أعجبَ من حالِ مَنْ يرى كلامين أجزاءُ أحدِهما مخالفةٌ في معانيها لأجزاءِ الآخَرِ ثم يرى أنّـَه يَسَعُ في العقل أن يكونَ معنى أحدِ الكلامين مثلَ معنى الآخر سواء حتى يتصدّـَى فيقولَ : إِنه لو كانَ يكون الكلامُ فصيحاً من أجلِ مزيّـَة تكون في معناه لكان ينبغي أن توجدَ تلك المزية في تفسيرهِ . ومثلُه في العجب أنه ينظر إِلى قوله تعالى : ( فما رَبحتْ تِجارتُهم ) فيرى إِعرابَ الاسم الذي هو التجارةُ قد تغيّـر فصار مرفوعاً بعد أن كان مجروراً . ويرى أنه قد حُذِفَ من اللفظ بعضُ ما كان فيه وهو الواوُ في " ربحوا " و " في " من قولنا : في تجارتهم . ثم لا نعلمُ أن ذلك يقتضي أن يكون المعنى قد تغيّـَر كما تغير اللفظُ .

واعلمْ أنه ليس للحجج والدلائل في صحة ما نحنُ عليه حدٌّ ونهاية . وكلّـَما انتهى منه بابٌ انفتح فيه بابٌ آخر . وقد أردتُ أن آخذَ في نوعٍ آخرَ من الحِجاجِ ومن البَسْط والشرحِ فتأمّـَلْ ما أكتبُه لك : .

اعلمْ أنّـَ الكلامَ الفصيحَ ينقسم قسمين : قسمٍ تُعْزى المزيةُ والحسنُ فيه إِلى اللفظِ . وقسمٍ يُعزى ذلك فيه إِلى النّـَظم . فالقسمُ الأولُ : الكنايةُ والاستعارةُ والتمثيل الكائن على حدّـِ الاستعارة وكل ما كان فيه على الجُملة مجازٌ واتساعٌ وعدولٌ باللفظ عن الظاهر . فما من ضربٍ من هذه الضروب إِلا وهو إِذا وقعَ على الصواب وعلى ما ينبغي أوجبَ الفضلَ والمزيةَ . فإِذا قلتَ : هو كثيرُ رمادِ القِدر . كان له موقِعٌ وحظٌّ من القَبول لا يكون إِذا قلتَ : هو كثيرُ القِرى والضيافة . وكذا إِذا قلتَ : هو طويلُ النجاد كان له تأثيرٌ في النفس لا يكون إِذا قلتَ : هو طويل القامة . وكذا إِذا قلتَ : رأيتُ أسداً . كان له مزية لا تكون إِذا قلتَ : رأيتُ